الآداب الروحية و الإيمانية في تدبر القرآن الكريم

(تأملات فكرية تحليلية تطبيقية لآراء بعض المفسرين المتقدمين والمعاصرين)

بقلم

الدكتور خير الدين خوجة

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة قطر

2012

مقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل:﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾،[النحل:44]، وقال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، [ص: 29]، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا محمد المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال والغي والرشاد والشك واليقين وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار والتابعين الأبرار، ما تعاقب الليل والنهار إلى أن يقوم الناس للرب الواحد القهار، أما بعد؛

لقد كثر الحديث عن النجاح والسعادة والتفوق والقوة في هذا الزمان الصعب، وكثرت حوله المؤلفات والمحاضرات وكل فريق يدعي أن كتابه أو برنامجه أو مذهبه أو حزبه هو البلسم الشافي لهذه الأوضاع المؤلمة، وكل حزب بما لديهم فرحون ! غير أن الأمر ليس كما يزعمون. إننا لن نسلم من هذه الأوضاع المأساوية ولن ترى أمتنا نوراً وسط هذا الظلام الدامس إلا إذا اقتبست نورها من كتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم، حفظاً وتلاوة، تدبراً وتفسيراً، تعلماً وتعليماً، عملاً به ودعوة إليه بإخلاص وولاء صادق. فلا نجاح ولا صلاح لهذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

أهمية البحث

إننا نعيش اليوم في زمان من أصعب الأزمنة التي مرت بالأمة الإسلامية على مر التاريخ من حيث الذل والقهر والتخلف لأبناء الأمة الإسلامية وتكالب الأعداء عليها لنهب ثرواتها وخيراتها وتشريد أبنائها ومصادرة ثقافتها الإسلامية واستبدال الثقافة العلمانية الغربية والأمريكية بالثقافة الإسلامية [1].

إن صورة الإسلام في ذهن الغربيين صورة غامضة، يكتنفها الكثير من الجهل والتشويش والعداوة الظاهرة، على الرغم من الحروب الدامية التي شنها الغرب وأمريكا على المسلمين في العراق وأفغانستان وباكستان، والروس على مسلمي القوقاز والشيشان، والصرب على مسلمي البلقان في البوسنة والهرسك وكوسوفا، وإسرائيل على المسلمين العزل في فلسطين المحتلة...أقول: إن المفروض والمتوقع أن يكون عندهم فهم أفضل ورؤية أكثر إنصافاً للإسلام وحقيقته، ولكن للأسف وجدنا الجهل العريض والعميق لعامة الشعوب الغربية بجغرافية العالم الإسلامي وتاريخه ودينه وشؤونه. لقد وقع كثير من الغربيين ضحايا الدراسات الإستشراقية قديماً وحديثاً وضحايا الأفلام ووسائل الإعلام الصهيونية. فالشرقي والمسلم عندهم شخص غير مألوف، فظٌّ

[1] انظر: بكار، عبد الكريم ؛ **عصرنا والعيش في زمانه الصعب**، دار القلم، دمشق، ط2، 2004، ص: 5- 25

غليظٌ قاسٍ، أسير الشهوات...!! فهم يعتقدون بأنه لا فائدة ترتجى من وراء معرفة أحوال تلك الشعوب المتخلفة أو النامية. فالشرق عندهم موطن السحر والخرافات والأوهام ومأوى الشياطين والكهّان، وموطن النسل الوفير. فالشرق عندهم لا يعرف حرية الأفراد ولا حرية التعبير، وكل ما لديهم من التقدم فهو بسبب التقدم التقني الغربي. والشرقي عندهم دموي إرهابي أصولي متطرف !! وعند التأمل نجد أن المغذي الأساسي لهذه الصورة القاتمة هي رواسب الحروب الصليبية، والتشويه الإعلامي الصهيوني والموقف الاستشراقي المضلل وغير نزيه. بناء على ما سبق، تأتي هذه الدراسة محاولة تقديم علاج لهذه الرؤية البائسة والعقد الفكرية المعوجة لدى هؤلاء، ودعوتهم بالعودة إلى القرآن الكريم من خلال البحث الحر النزيه والتدبر الأمثل للآيات القرآنية، لأنه كتاب الزمن كله والإنسانية كلها وأن الدعوة القرآنية عامة لجميع الناس دون استثناء. وليت هؤلاء يعودون إلى القرآن الكريم ويكفوا أيديهم وألسنتهم عن الطعن في القرآن ونبي الإسلام والمسلمين ويدخلوا في دين الله أفواجاً من خلال القراءة المتأنية للقرآن الكريم والتدبر العميق لأبعاد الأحكام الشرعية والحدود والأوامر الربانية المنزلة[2].

سبب البحث

لما رأيت إعراض الناس وغفلتهم عن القيام بواجب التدبر لكتاب الله عز وجل، وأن هممهم نحو كتاب الله عز وجل تدبراً وفهماً وتمسكاً وتحفيظاً وتعليماً قد ضعفت، واتجاهات منحرفة في التفسير قد ظهرت، وكثيراً من الظروف السياسية والفكرية والدينية قد استجدت، وتكالب الأعداء قاطبة على الأمة الإسلامية قد اشتدت، فقد استغل بعض شياطين الإنس وجنود إبليس هذا الزمان الصعب، فقاموا بتوظيف وتشغيل أفكار الناس بالموضوعات والقضايا التكفيرية والتفسيقية والتبديعية وتفسير الآيات القرآنية تفسيراً ظاهرياً وباطنياً منحرفاً. ورأيت فريقاً آخر من هؤلاء مستغرغاً في البحوث الفكرية والجدليات الفلسفية العقيمة والقراءات المعاصرة والنظرات الألسنية والتاريخية للقرآن الكريم...، أقول: إني لما رأيت هؤلاء وهؤلاء؛ عزمت بعون الله تبارك وتعالى أن أفرد رسالة حول ضرورة عودة الناس عامة والدعاة خاصة إلى تدبر كتاب الله تبارك وتعالى تدبراً أمثل.

منهج الباحث

[2] إن شئت أن تقف على هذه الحقائق يمكنك مشاهدة لقطات فديو مسجلة على الانترنت في يو تيوب بعنوان: **www.turntoislam.com**، و من خلال البحث على غوغل: **The fastest growing religion in the world**

إن المنهج الذي سرت عليه في هذه الدراسة هو المنهج الاستقرائي الوصفي النقدي.

الجديد في هذه الدراسة

إن الجديد في هذه الدراسة هو البحث والتتبع للآداب الروحية والمبادئ الأخلاقية المتناثرة في بطون مصنفات التفسير وعلوم القرآن قديماً وحديثاً حول كيفية تدبر كتاب الله عز وجل تدبراً أمثل، ومن ثمَّ الجمع والتحليل والترتيب والتهذيب لما كتبه القدامى والمعاصرون وتقديمها في دراسة مستقلة بقالب منهجي آخر أكثر تيسيراً وتقريباً إلى الفهم والتطبيق، وذلك بتقسيمها إلى قسمين: الأول: الآداب الروحية والمبادئ الأخلاقية للتدبر، والثاني: الأسس العلمية والقواعد المنهجية للتفسير. وهذا التقسيم بهذا الاعتبار لم أجده لدى المؤلفين القدامى ولا المعاصرين. وفي هذه الدراسة سأركز على الآداب الروحية والمبادئ الأخلاقية للمتدبر [3] والله أعلم.

خطة البحث

وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة ومدخل ومبحثين وخاتمة. بينت في المقدمة سبب اختيار البحث وأهميته ومنهج الباحث وما الجديد في هذه الدراسة. وبينت في المدخل مصطلح التدبر المتعلق بالبحث لغة واصطلاحاً. ثم في المبحث الأول تحدثت عن مكانة القرآن الكريم في حياة الناس وتحته مطلبان: الأول بينت فيه أحوال الناس مع القرآن وكان هذا المطلب بمثابة التشخيص للداء، و في المطلب الثاني بينت واجبنا نحو القرآن الكريم وحاجة القلب إلى التدبر وهو مثابة العلاج لذلك الداء. وفي المبحث الثاني ذكرت كلاماً لبعض المفسرين القدامى والمعاصرين في المطلبين. وفي المبحث الثالث بينت ضرورة استحضار الآداب الروحية والمبادئ الأخلاقية عند التدبر، وجعلت تحته مطلبين: الأول: الآداب الروحية والأخلاقية للمتدبر، والثاني، ذكرت فيه بعض الآداب الروحية والنفسية والأخلاقية الأخرى من منظور الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي. وعقبت ذلك بالخاتمة وفهرست المصادر والمراجع.

---

[3] وإن شاء الله في دراسة أخرى قادمة مستقلة سأتحدث عن الأسس العلمية والقواعد المنهجية للمفسر، عسى أن تكون هذه الدراسة منهلاً سهلاً ينهل من معينها طلبة العلم الشرعي أولاً ولمن شاء من الباحثين في كتاب الله عز وجل ثانياً وعامة الناس ثالثاً. وكما قال العالم الأزهري شمس الدين البابلي المتوفى سنة 1077 هـ :**[لا يؤلف أحد كتاباً إلا في أحد أقسام سبعة، ولا يمكن التأليف في غيرها، وهي:1– إما أن يؤلف في شيء لم يسبق إليه يخترعه، 2– أو شيء ناقص يتممه، 3– أو شيء مستغلق يشرحه، 4– أو طويل يختصره دون أن يخل بشيء في معانيه، 5– أو شيء مختلط يرتبه،6– أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه، 7– أو شيء مفرق يجمعه]**. انظر: ملا المحبي محمد أمين بن فضل الله (**خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**)ج4، ص 41، ط القاهرة، 1284 هـ

هذا، وأود في هذه المناسبة المباركة أن أتقدم بالشكر الجزيل والثناء العطر إلى صاحبي الفضيلة حفظهما الله؛ الأستاذ الدكتور سعيد محمد إسماعيل الصاوي؛ (**أستاذ الثقافة الإسلامية مقارنة الأديان**) بكلية أصول الدين بجامعة السلطان الشريف علي الإسلامية، والأستاذ الدكتور المكي اقلاينة؛ (**أستاذ السنة وعلومها**) بكلية أصول الدين بجامعة السلطان الشريف علي الإسلامية على ما قدما من ملحوظات علمية ومنهجية ولغوية، حيث تفضلا علي بقراءة البحث و إبداء تلك الملحوظات القيمة قبل تسليمه إلى كلية أصول الدين لتحكيمه. فأنا لصاحبي الفاضلة شاكر ومقدر وأسال الله عز وجل أن يجزيهم خير الجزاء وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتهما يوم القيامة إنه تعالى سميع قريب مجيب.

المدخل: تحديد المصطلح

التدبر في اللغة والاصطلاح:

التدبر لغة: " هو النظر في عاقبة الأمر والتفكر فيه..". و" وتدبُّر الكلام: النظر في أوله وآخره، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة؛ ولهذا جاء على وزن (التفعُّل) كالتجرُّع والتفهُّم والتبيُّن؛ فهو مشتق من النظر في أدبار الأمور وعواقبها.." [4].

والتدبر اصطلاحاً: هو تفهُّم معاني ألفاظ القرآن والتفكر في مدلولات الآية وإن كان اللفظ على ظاهره لم يشتمل على ذكر تلك الإشارات والمعاني [5].

وبناء على المعنى اللغوي والاصطلاحي للتدبر يكون معنى تدبر القرآن هو: إمعان القارئ نظره في الآيات الكريمة والتفكير فيها والتأمل حولها والنظر إلى ما يمكن أن يكون في نهايات الآيات من العواقب والنتائج والدروس والعبر، لتتشبّع نفسه ويستغرق عقله في المفاهيم، ويهتدي سلوكه ببصائر الوحي الإلهي المقدس. كما أن معنى التدبر يشمل أيضاً معرفة معاني الألفاظ المتقاربة من التدبر وما تدل عليه الآية وما يفهم من السياق العام للآيات أو اللحاق أو السباق، وهذه المعاني تحرك العقل والقلب ببشائره وزواجره، والخضوع لأوامره واليقين بأخباره. قال الإمام ابن القيِّم (ت: 751):

"... وهذا يسمَّى تفكُّرًا وتذكُّرًا ونظرًا وتأمُّلاً واعتبارًا وتدبُّرًا واستبصارًا، وهذه معانٍ متقاربةٌ تجتمع في شيءٍ وتتفرقُ في آخر. ويسمَّى تفكُّرًا، لأنه استعمالُ الفكرةِ في ذلك، وإحضارُه عنده. ويسمَّى تذكُّرًا، لأنَّه إحضارٌ للعلمِ الذي يجب مراعاته بعد ذهولِه وغيبتِه عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 201]. ويسمَّى نظراً، لأنَّه التفاتٌ بالقلبِ إلى المنظورِ فيه. ويسمَّى تأمُّلاً، لأنه مراجعةٌ للنَّظرِ كرَّةً بعد كرَّةٍ، حتى يتجلَّى له وينكشف لقلبِه. ويُسَمَّى اعتبارًا، وهو افتعالٌ من العبورِ، لأنَّه يَعْبُرُ منه إلى غيرِه، فَيَعْبُرُ من ذلك الذي قد فَكَّرَ فيه إلى معرفةٍ ثالثةٍ، وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يُسَمَّى عِبْرَةً، وهي على بناءِ الحالاتِ كالجِلْسَةِ والرِّكْبَةِ والقِتْلَةِ إيذانًا بأنَّ هذا العلمَ والمعرفةَ قد صار حالاً لصاحبِه يَعْبُرُ منه إلى المقصودِ به، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ [النازعات:

---

[4] انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري؛ **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط1، ص 4، ج27 ، وانظر : **الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبي، ج5، ص 290، وانظر أيضاً: **التعريفات** للجرجاني، ص: 76، وانظر: الأصفهاني؛ الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، **مفردات ألفاظ القرآن**، نسخة محققة، دار القلم، دمشق. 1980.

[5] انظر: **تفسير ابن كثير**، ج1، ص 501، وانظر: **التبيان في آداب حملة القرآن**، للنووي، ص 2- 5

26]. وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: 13]. ويُسمَّى تدبُّراً، لأنَّه نظرَ في أدبارِ الأمورِ، وهي أواخرُها وعواقبها، ومنه تدبُّرُ القول..." [6].

وتجدر الإشارة هنا إلى نقطة مهمة جداً أشار إليها الإمام الطبري رحمه الله، و هي أن تدبر معاني كتاب الله عز وجل يأتي بعد فهم كلام الله سبحانه وتعالى، وإلا ففاقد الشيء لا يعطيه وهيهات أن يحصل التدبر دون الفهم والتعقل لما هو مكتوب ومسطور. قال الإمام الطبري (ت: 310):" وفي حَثِّ الله عز وجل عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات – بقوله جل ذكره لنبيه ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: 29]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: 27- 28]، وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عباده وحثَّهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن والاتعاظ بمواعظه – ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آية. لأنه مُحَالٌ أن يُقال لمن لا يفهم ما يقال ولا يعقل تأويلَه: اعتبر بما لا فَهْمَ لك به ولا معرفةَ من القِيلِ والبيان والكلام إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به. فأما قبل ذلك، فمستحيل أمره بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محال أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلام العرب ولا يفهمونه، لو أنشد قصيدة شعر من أشعار بعض العرب ذات أمثال ومواعظ وحكم: اعتبر بما فيها من الأمثال، واذكر بما فيها من المواعظ إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلام العرب ومعرفته، ثم الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم. فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق، فمحال أمرها بما دلت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعبر...فكذلك ما في آي كتاب الله من العِبَرِ والحِكَمِ والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: اعتبرْ بها إلا لمن كان بمعاني بيانه عالماً، وبكلام العرب عارفًا..." [7].

وتدبر القرآن الكريم ليس من حق العلماء فحسب. وإنما هو حق جميع الناس مسلمين وغير مسلمين إذا فهموا معاني الآيات القرآنية مباشرة أو عن طريق الترجمات. والتدبر هو منظومة تشمل كافة بني البشر بما يحملون من قوى عقلية أودعها الله تعالى فيهم، وأن التدبّر أيضاً منظومة نسبية، يختلف تعامل الناس والعلماء معه وفيه بقدر ما يُعْطَى له من جهد وتلاوة وتدبر وتعمق وغوص في معاني الآيات ودلالاتها وإشاراتها وبحر معارفها، ومطالعة لكتب التفسير.

---

6 ، ابن القيم، **مفتاح دار السعادة**، ج1، ص 182

[7] الطبري، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، ج1، ص 36 -37، وللاستاذ الدكتور مساعد بن سليمان الطيار حفظه الله كتاب مهم للغاية حول هذا الموضوع بعنوان: **مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر**، منشور في موقع ملتقى أهل الحديث: www.ahlalhadeeth.com، ص: 104 - 122

المبحث الأول: مكانة القرآن الكريم في حياة الناس

المطلب الأول: أحوال الناس مع القرآن الكريم (التشخيص)

ناقش العلماء قديماً وحديثاً قضية تقاعس بعض المسلمين عن القرآن الكريم والتمسك بتعاليمه وأحكامه. حقاً إن المتأمل لحالنا مع هذا الكتاب العظيم في هذه الأيام ليجد البون الشاسع بين ما نحن فيه وما يجب أن نكون عليه. تجد فينا إهمالاً في التلاوة وتكاسلاً في الحفظ وتغافلاً عن التدبر وبعداً عن العمل والدعوة إليه، وعدم محبته وتقديره حق التقدير. قال الإمام الرباني ابن القيم رحمه الله: "الناسُ ثلاثةٌ: رجلٌ قلبُه ميتٌ، فذلك الذي لا قلبَ له، فهذا ليست الآية ذكرى في حقه. الثاني: رجلٌ له قلب حيٌّ مستعدٌّ، لكنه غير مستمعٍ للآيات المتلُوةِ، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة، إما لعدم وُرُودها، أو لوصولها إليه، وقلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصُلُ له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه. والثالث: رجلٌ حيُّ القلب مستعدٌّ، تُليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع، وأحضر قلبه، ولم يشغلْه بغير فهم ما يسمعُهُ، فهو شاهدُ القلب، مُلقي السَّمع، فهذا القِسمُ هو الذي ينتفع بالآيات المتلوَّة والمشهودة.**فالأول**: بمنزلة الأعمى الذي لا يُبصر.**والثاني**: بمنزلة البصير الطَّامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.**والثالث**: بمنزلة البصير الذي قد حدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسُّطٍ من البُعد والقربِ، فهذا هو الذي يراه. فسبحان من جعل كلامه شفاءً لما في الصدور. فاعلم أن الرجل قد يكونُ له قلبٌ وقَّادٌ، مليءٌ باستخراج العبر واستنباط الحكم، فهذا قلبه يُوقعه على التذكُّر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نُورًا على نور، وهؤلاء أكملُ خلق الله، وأعظمهم إيمانًا وبصيرةً، حتى كأنَّ الذي أخبرهم به الرسول – صلى الله عليه وسلم – مشاهدٌ لهم، لكن لم يشعُرُوا بتفاصيله وأنواعه...فصاحبُ هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نورٌ من البصيرة، ازداد بها نورًا إلى نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبُهُ ولم يغب حصل له التذكُّرُ أيضًا.."[8].

والأعجب من ذلك أن ترى اليوم كثيراً من المسلمين بل وتسمع من الطلاب والطالبات في الجامعات العربية وغير العربية عن تضييع أوقاتهم في مطالعة الصحف والمجلات، ومشاهدة المسلسلات المكسيكية والتركية، ومتابعة مباريات كرة القدم والسلة في الدوريات، وسماع الأغاني المخلة بالمروءة والانشغال بالملهيات، والتركيز على مشاهدة لقطات الفيديو على اليوتيوبات، سواء ما خبث منها أم طاب، والمحادثة والسهر على

[8] انظر: **الفوائد**، للإمام ابن القيم، ص 10-45

الياهو والماسنجرات، وانشغال بالرسائل الواردة في الجوالات والإيميلات، واستغراق في حديث الفنانين والفنانات والمطربين والمطربات والراقصين والراقصات المتزوجين والمطلقات والخبيثين والخبيثات...إلخ، ظلمات بعضها فوق بعض، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولا تجد لكتاب الله تعالى في أوقاتهم نصيباً، ولا لروعة خطابه منهم مجيباً، ولا لزواجره وروادعه نذيراً..!! فهم في غيّهم وطغيانهم يعمهون وإلى ربهم لا يهتدون !! وترى أحدنا إذا قرأ القرآن لم يحسن النطق بألفاظه، ولم يتدبر معانيه ولم يفهم مراده، وأن حال الصادقين المخلصين مع القرآن إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، ووجلت قلوبهم من وعيده، فهم من خشيته مشفقون، والتي لو أنزلت على جبل..﴿ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾، [الحشر: 21]. فلا ترق قلوبنا، ولا تخشع نفوسنا، ولا تدمع عيوننا، وصدق الله إذ يقول:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾، [البقرة: 74] .

وترانا نمر على الآيات تلو الآيات، والعظات تلو العظات، ولا نفهم معانيها، ولا ندرك مراميها، وكأن أمرها لا يعنينا وخطابها لا يناجينا...، فقل لي بربك، مثلاً؛ ما معنى ﴿الصَّمَدُ ﴾ ؟ وما المراد بـ: ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾؟، وما هو:﴿ الْخَنَّاسِ ﴾، ﴿ والليل إذا عَسْعَسْ﴾ ؟ والواحد منا يتلو هذه الآيات في يومه وليلته أكثر من مرة..؟! أي هجران بعد هذا الهجران، وأي خسران أعظم من هذا الخسران..؟! لا أجد له تبريراً وأرفضه جملة وتفصيلاً. كما أننا نجد آيات كثيرة قد ذمت قديماً هولاء المعرضين والمشركين الذين هجروا القرآن وكانوا لا يتدبرونه ولا يفقهونه مع كونهم فرسان العربية وأئمة البلاغة والخطابة والبيان قال تعالى:

1- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾،[لقمان: ٧].

2- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام: ٢٥].

3- ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾،[الفرقان: 30].

4- ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، [الأعراف: ١٨٤].

ويظهر فيما سبق أن هجر القرآن الكريم والابتعاد عن تدبره قديماً وحديثاً له صور ومظاهر ويمكن تلخيصها في: هجر تلاوته وسماعه والإصغاء إليه، واستبداله بسماع الكلام الباطل والغناء الفاحش وهجر الإيمان والعمل به وعدم الوقوف عند حلاله وحرامه، وهجر التحاكم إليه وتحكيمه، والرضا بالعادات والأعراف والقوانين والأهواء وهجر الاستشفاء به في القلب والبدن[9]، وهجر الدعوة إليه وعدم نشر ترجمته باللغات المختلفة وعدم بيان إعجازه العلمي والتشريعي للناس في وسائل الاعلام الحديثة، المرئية والمسموعة والمقروءة. فأصبح القارئ يقرأ القرآن والقرآن يلعنه، لأنه يقرأ و يكذب و يظلم وينافق فيكون من أهل اللعنة،

[9] انظر للتوسع: ابن القيم، **الفوائد**، ص 156

والله أعلم. ومن رفع هذا القرآن رفعه الله ومن وضعه وضعه الله. إنها كرامة وأي كرامة أن يكون بين أيدينا كتاب ربنا وكلام مولانا الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً. قال بن مسعود رضي الله عنه: [ينبغي أن يعرف أهل القرآن بالقيام إذا الناس نائمون، وبالبكاء إذا الناس يضحكون، وبالصوم إذا الناس يفطرون] [10]. ويمكن أن نضيف إلى كلام ابن مسعود رضي الله عنه القول:

أ – ينبغي أن يعرف أهل القرآن بالصدق والإخلاص إذا الناس يكذبون وينافقون.

ب- وبالأمانة والثقة إذا الناس يخونون.

ج – وبالجود والسخاء إذا الناس يبخلون.

د – وبالجد والاجتهاد إذا الناس ينامون ويتكاسلون.

هـ – وبالابتسامة والحب إذا الناس يعبسون ويُقَطِّبُون.

ح – وبالعفو والصفح إذا الناس ينتقمون.

ط – وبالحلم والصبر إذا الناس يجهلون.

ي – ملتزمين بآداب الحوار والمناقشة إذا الناس يخالفون.

ك – بالابتعاد عن مجالس اللهو واللغو إذا الناس يخوضون.

ل – وبالابتعاد عن التجسس والغيبة والنميمة والحقد والحسد إذا الناس يقعون.

م- وبالتفاني والولاء المخلص للوطن وللمؤسسات والجامعات التي هم فيها يعملون.

ف – وبالاهتمام بحسن المنظر وجمال الهيئة إذا الناس يزهدون...والله أعلم.

[10] المصدر السابق، ص 192، وانظر أيضاً: النووي، يحي بن شرف الدين أبو زكريا، **التبيان في آداب حملة القرآن**، تحقيق محمد الحجار، دار ابن حزم، ط4، 1996، ص 44. ولكاتب هذه السطور رسالة بعنوان: **البعد التربوي في فكر الإمام النووي من خلال كتابه: التبيان في آداب حملة القرآن**، ط1، مطابع الرشيد، المدينية المنورة، 2009.

المطلب الثاني: واجبنا نحو القرآن وحاجة القلب إلى التدبر والتفسير (العلاج)

إن حق القرآن علينا كبير وواجبنا نحوه عظيم. فمن حقه علينا أن نحسن التعامل معه حفظاً وتلاوة واستماعاً وتدبراً وتأملاً وفهماً وتفسيراً وفقهاً لأسراره ودعوة إلى أحكامه. ويمكن تلخيص واجبنا نحو القرآن الكريم في هذه النقاط:1- الاعتقاد فيه بعقيدة أهل السنة والجماعة على أنه كلام الله عز وجل المنزل على سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه سلم، الواصل إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز بآية أو سورة منه، الموجود بين دفتي المصحف، تكلم الله به قولاً وأنزله على رسوله وحياً، 2- إنزاله منزلته وتعظيم شأنه واحترامه وتبجيله وكمال محبته. فهو كلام ربنا ومحبته محبة لقائله، وتبجيله تبجيل لقائله، 3 - تعلم علومه وتعليمه والدعوة إليه. قال صلى الله عليه وسلم: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"[11]. 4- فهم معانيه وتدبره ومعرفة تفسيره والاتعاظ به، 5- الحرص على حفظه وتعاهده. فهو غنيمة أصحاب الهمم العالية، والعزائم الصادقة. فإن قصرت همتك عن حفظه كله فاحذر أن تكون ممن قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم:

" إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب " [12]. 6- إقامة حدوده والعمل به، والتخلق بأخلاقه وتحكيمه في أقوالنا وأفعالنا وأحوالنا وسائر أمورنا الدينية والدنيوية. فالعمل به أساس النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، وهجره طريق الذلة والهلاك في الدنيا والآخرة.

قال الإمام ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾،[الفرقان:30] : ".. فترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه الى غيره من شعر أو غناء أو لهو[13] من هجرانه.." هذا باختصار شديد عن واجبنا نحو هذا الكتاب العظيم وعن حقه علينا [14].

---

[11] رواه **البخاري**، ج4، ص1919، ح4739

[12] **رواه الترمذي في سننه** ، رقم الحديث : 2135، وقال هذا حديث صحيح . قال الشيخ الألباني رحمه الله: في تحسينه نظر عندي! لأنه من رواية قابوس بن أبي ظبيان؛ وقد ضعفه جماعة من الأئمة. انظر: **هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة ومعه تخريج الألباني للمشكاة**، المؤلف :أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق :علي بن حسن بن عبدالحميد الحلبي، دار ابن القيم ، الدمام ، ط 1 ، 1422 هـ ، ص:2077

[13] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص 197

[14] للتوسع حول هذه المسألة أحيل القارئ الكريم إلى كتاب فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله، بعنوان: **كيف نتعامل مع القرآن العظيم – فهماً وتفسيراً**، فإن فيه فوائد جمة، وقد لخص فضيلته مسألة واجبنا نحو القرآن في هذه النقاط: **واجب التلاوة والتجويد، واجب الحفظ والتمكين، واجب التدبر والتعلم، واجب العمل والتخلق، واجب الدعوة والتعليم**، راجع هذه الصفحات: 12 - 65

المطلب الثالث: حال الرسول صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح مع القرآن الكريم

حتى يكون قلب المسلم حيّاً مستفيداً من عِبَر القرآن ومواعظه، يحسن بنا أن نستعرض قبسات من السنة النبوية المطهرة لكي نرى حال الرسول صلى الله عليه وسلم وتدبره للقرآن الكريم وحال الصحابة رضوان الله عليهم وحال السلف الصالح من بعدهم.

روى الإمام مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: "صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة. ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة؛ فمضى. ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها. يقرأ مترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ.." [15]. وكان صلى الله عليه وسلم يدعو الأمة إلى تدبر وفهم معاني القرآن، فحين نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وعلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [آل عمران:190- 191]. تقول عائشة رضي الله عنها: " قام [أي رسول الله صلى الله عليه وسلم] ليلة من الليالي فقال : يا عائشة ذريني أتعبد لربي قالت : قلت : والله إني لأحب قربك وأحب أن يسرك قالت : فقام فتطهر ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض وجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال يا رسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ! لقد نزلت علي الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها [16] ".

وأما حال الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع القرآن الكريم فحدث ولا حرج.كان ابن عباسٍ رضي الله عنهما يقول: "ركعتان في تفكرٍ خيرٌ من قيام ليلة بلا قلب" [17]. وكان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: " إنما نزل القرآن ليُعْمَلَ به فاتخذ الناس قراءته عملاً. قيل: كيف العمل به؟ قال: ليحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه" [18]. وعمليًا كان منهم من يقوم

---

[15] **صحيح الإمام مسلم بشرح النووي**، ج3، ص 34

[16] قال الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله في **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها** : إسناده جيد، ج1، ص 147.

[17] ذكره شيخ الإسلام عبد الله ابن المبارك **في كتاب الزهد** ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دا رالكتب العلمية، ج1، ص 97

[18] للمزيد عن حال السلف مع القرآن الكريم انظر: الزركشي، بدرالدين؛ **البرهان في علوم القرآن، فصل:آداب التلاوة** ج1، 450- 454، وحول مبادئ التدبر للقرآن الكريم أدعوك إلى استماع محاضرات الشيخ الدكتور عصام بن صالح العويد على موقع البث الإسلامي:
http://www.liveislam.net/archive.php?sid=&tid=756 فإن في محاضراته الصوتية خيراً كثيراً حول هذه المسألة.

بآية واحدة يرددها طيلة الليل يتفكر في معانيها ويتدبرها. ولم يكن همهم مجرد ختم القرآن؛ بل القراءة بتدبر وتفهم. عن محمد ابن كعب القُرَظِي قال: "لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بـ﴿**إذا زلزلت**﴾ و ﴿ **القارعة** ﴾ لا أزيد عليهما وأتردد فيهما وأتفكر؛ أحبُّ إليَّ من أن أَهُذِّي القرآن (أي أقرأه بسرعة)". وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، [الجاثية: ٢١]. وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾، [يس: ٥٩]. وكان بعضهم يقول:آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثواباً. وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال:إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال. ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها. وعن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها. وقال بعض العارفين: [لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمه منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد]. وذلك بحسب درجات تدبره ونظره المتأني في الآيات [19].

المبحث الثالث: ومضات من كلام المفسرين حول فضل وفوائد تدبر القرآن الكريم

وحول أهمية التدبر وفائدته والحكمة من ورائه أرى من الفائدة أن أعرج قليلاً إلى كلام بعض المفسرين القدامى والمعاصرين وتفسيرهم لبعض الآيات التي دعت إلى تدبر القرآن والتأمل في معاني الآيات لكي نزداد يقيناً بموضوع التدبر وأهميته.

المطلب الأول: المفسرون القدامى

1- قال الإمام الزمخشري (ت 538 هـ) في تفسيره لقوله تعالى:﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾، [ص:29]، " ...وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة...وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطتُ منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بِحِفظِ حروفه وإضاعةِ حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة [أي الدافعون والكافون]، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء. اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعذنا من القراء المتكبرين" [20].

---

[19] انظر للوتسع: الرومي، فهد بن عبد الرحمن؛ **أصول التفسير ومناهجه**، مكتبة التوبة، ط.د، الرياض، 1413، ص 20-25

[20] **الزمخشري** ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله؛ **تفسير الكشاف**، ج6، ص 17

2- وقال الإمام الفخر الرازي (ت 606 هـ) في تفسيره لقوله تعالى:﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾، [ص:29] ، " ...فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم..."[21].

3- وقال الإمام القرطبي في تفسيره لقوله تعالى:﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، [الحشر: ٢١]، " حث على تامل مواعظ القرآن، وبين أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة متشققة من خشية الله، وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده ولا ترهبون من وعيده.! " [22].

وكما هو ملاحظ من كلام المفسرين رحمهم الله أنهم جميعاً ركزوا على ضرورة التدبر والتأمل في الآيات القرآنية حتى يقف القارئ على أسرار هذا الكتاب العظيم، كما أنهم أشاروا إلى أن هذا الكتاب لو خوطب به الجبال والجمادات لانقادت لمواعظه وأوامره رغم صلابتها، فما بال الإنسان لا يفقه هذا الأمر الإلهي والسر الرباني! إن هذا لَشَيْئٌ عُجاب. قال تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾، و بما أنه من عند الله ففيه ائتلافاً كثيراً وانسجاماً كبيراً.

المطلب الثاني: المفسرون المعاصرون

1. قال الأستاذ سيد قطب (ت 1386 هـ) في تفسير لقوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، [محمد :24]، "... أولئك الذين يظلون في مرضهم ونفاقهم حتى يتولوا عن هذا الأمر الذى دخلوا فيه بظاهرهم ولم يصدقوا الله فيه، ولم يستيقنوه﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾...، وطردهم وحجبهم عن الهدى ﴿ فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾...، وهم لم يفقدوا السمع ولم يفقدوا البصر؛ ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر، أو عطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر؛ فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة. ويتساءل في استنكار :﴿ أفلا يتدبرون القرآن﴾، وتدبر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير. وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير، ﴿ أم على قلوب أقفالها ؟﴾ فهي

[21] **الرازي**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج 13، ص 137

[22] القرطبي، أبو عبد الله؛ **الجامع لأحكام القرآن**، ج18، ص 44

تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور؟ فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور! "[23].

2. قال الإمام الطاهر بن عاشور (ت 1393 هـ) في تفسيره لقوله تعالى :﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، [النساء:82]، "..فمعنى ﴿ يتدبَّرون القرآن ﴾ يتأمّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أن يتأمّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبّر تفاصيله؛ وثانيهما أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنّه من عند الله، وأنّ الذي جاء به صادق. وسياق هذه الآيات يرجّح حمل التدبُّر هنا على المعنى الأول، أي لو تأمّلوا وتدبّروا هدي القرآن لحصل لهم خير عظيم ، ولما بَقُوا على فتنتهم التي هي سبب إضمارهم الكفر مع إظهارهم الإسلام. وكلا المعنيين صالح بحالهم، إلاّ أنّ المعنى الأول أشدّ ارتباطاً بما حكي عنهم من أحوالهم..." [24].

3. وقال الشيخ الشنقيطي (ت 1393 هـ) في قوله تعالى :﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، (صّ:29): "وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه أنزل هذا الكتاب معظماً نفسه جل وعلا بصيغة الجمع، وأنه كتاب مبارك وأن من حِكَم إنزاله أن يتدبر الناس آياته، أي يتفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر فيها حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى، وأن يتذكر أولوا الألباب، أي يتعظ أصحاب العقول السليمة، من شوائب الاختلال" [25].

وكما هو ملاحظ من كلام المفسرين المعاصرين أن سبب غشاوة قلوب الكفار وعدم اهتدائهم إلى دين الله عز وجل هو عدم تدبرهم لهذا الكتاب حق التدبر دون مقررات وأفكار مسبقة، وكما أشار الأستاذ سيد قطب..." *وتدبر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير. وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير...*". بينما وجدنا الإمام ابن عاشور مركزاً على أن المراد من التدبر معنيان " *أحدهما أن يتأمّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبّر تفاصيله؛ وثانيهما أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنّه من عند الله، وأنّ الذي جاء به صادق...*". بينما الشيخ الشنقيطي رحمه الله ركز على أن الحكمة من إنزال القرآن "... *أن يتدبر الناس آياته، أي يتفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر فيها حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهد*" .

---

[23] قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن** ، ج6، ص 451

[24] ابن عاشور، محمد الطاهر؛ **التحرير والتنوير** ، ج3، ص 483

[25] الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني؛ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، ج7، ص 9

ومصداقاً لكلام هؤلاء المفسرين الأجلاء فهناك آيات كثيرة أشارت إلى تلك المعاني التي ذكرها هؤلاء العلماء نختار طائفة منها:

1- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

2- وقوله تعالى:﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾، إلى قوله تعالى:﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:107- ١٠٩].

3- وقوله تعالى:﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، [الحديد: ١٦].

4- وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾، [المائدة: ٨٣].

نفهم من هذه الآيات المباركة أن عملية تدبر القرآن هي عملية عقلية وقلبية في آن واحد[26] . فإذا أدرك العقل معاني الآيات وأسرارها التي يقرأها فإنه سرعان ما يرسل الرسائل الإيمانية إلى بقية أطراف البدن للتأثر والتفاعل مع العقل أو مركز الإدراك. فحتى تنهمر عيوننا بالدموع وحتى تقشعر أبداننا وتوجل من خشية الله عز وجل لا بد من تهيئة الأجواء النفسية والإيمانية الملائمة والمساعدة للتدبر الأمثل، مثل تلاوة القرآن في الأسحار وفي قيام الليل حيث الهدوء المطلق والبعد عن عيون الناس. لقد أدرك سلفنا الصالح هذه المعاني الجليلة فكنت تجدهم قُوّاماً في الليل وفرساناً في النهار شجعاناً في ساحات القتال. وما ذلك إلا للنفحات الإيمانية والتجليات الإلهية التي كانوا يتعرضون لها في الأسحار والبركات التي كانوا ينالونها في هذه الأوقات، و هذا شيئ مجرب وحقيقي، ولعلماء أمراض القلوب وتقويم السلوك الإنساني من أمثال الإمام الغزالي في (**إحياء علوم الدين**)، وشيخ الإسلام بن تيمية في (**الفتاوى**) والإمام ابن القيم رحمهم الله في (**زاد المعاد**) و (**مدارج السالكين**) كلام نفيس حول هذه المسائل، فارجع إليها إن شئت، والله أعلم.

[26] البوطي، محمد سعيد رمضان؛ **من روائع القرآن – تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل**، ط.د، 1982، مكتبة الفارابي، دمشق، 10- 50

المبحث الرابع: ضرورة استحضار الآداب الروحية والمبادئ الأخلاقية عند التدبر

المطلب الأول: آداب المتدبر الروحية والنفسية

لم أجد حسب علمي حتى الساعة هذا التقسيم بهذا الاعتبار – أي المبادئ والآداب الروحية والنفسية للتدبر، والأسس والقواعد العلمية المنهجية للتفسير – فيما وقفت عليه وقرأته من كلام العلماء. وأئمة السلف والخلف أشاروا إلى هذه الآداب والأسس مجتمعة مع بعضها البعض، وقد رأيت من الفائدة تقسيمها على النحو المذكور سابقاً. ولقد أشار الإمام السيوطي رحمه الله إلى بعضها في (**الإتقان**) والإمام الزركشي في (**البرهان**) والإمام الغزالي في (**الإحياء**) وابن القيم في (**الفوائد**) وكثير من المفسرين القدامى والمعاصرين رحمهم الله جميعاً. وبعد المطالعة لتلك المصادر والمراجع لكلا الفريقين رأيت أن أصنف خلاصة الفريقين مرتبة على النحو الآتي:

1- صحة الاعتقاد والتجرد عن الهوى.
2- حسن النية وصحة المقصد.
3- حسن الخلق والامتثال.
4- تحري الصدق والضبط في النقل.
5- التواضع ولين الجانب.
6- عزة النفس والجهر بالحق.
7- الهيبة والوقار والأناة والرويّة.
8- الوقوف عند كل آية والانفعال معها.
9- الإخلاص في القراءة واستحضار عظمة الله تعالى.
10- اليقين بأن ما يقرؤه ليس من كلام البشر.
11- عدم الطلب بالقرآن شرف المنزلة عند أبناء الدنيا.
12- الابتعاد عن المعاصي لأنها تذهب بنور الإيمان في القلب والوجه وتوهن القلب وتمرضه.
13- الاستعاذة بالله وعز جل وطرد حديث النفس أثناء التلاوة .
14- صون اليدين عن العبث والعينين عن تفريق النظر.

15- اختيار الوقت المناسب والذي يتجلى الله فيه على عباده وتتنزل فيه فيوضات رحمته. وأفضل القراءة ما كان في الصلاة، وأما القراءة في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير من الليل أفضل من الأول، وأما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الفجر.

16- ترديد الآية للتدبر والبكاء أثناء التلاوة خاصة عند قراءة آيات العذاب أو المرور بمشاهده وذلك عندما يستحضر مشاهد القيامة وأحداث الآخرة ومظاهر الهول يوم القيامة .[27]

17- علم الموهبة، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد. قال الإمام الزركشي في البرهان: " اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعة، أو كبر أو هوى أو حب الدنيا أو وهو مصرٌّ على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم...[28].

18- التوكل على الله والحذر من إفساد الأعمال بالرياء والعجب.

19- تفويض الأمر إلى الله تعالى والتضرع إليه أن يلهمه الرشد والتوفيق والسداد في فهم الآيات.

20- الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة [29].

21- الواقعية والجدية أثناء التدبر.

22- الإلمام بالملابسات التاريخية لنزول القرآن[30].

23- الإكثار في آيات العقيدة من الإشراقات والنتائج والتحليلات[31].

24- التأكيد على قضية الحاكمية والألوهية لله تعالى حتى تستقر في قلوب الناس[32] .

25- الثقة بالنفس والشجاعة فيما يتبنى من الأفكار.

26- الذهاب بالخيال والمشاعر والأحاسيس إلى الجو الذي تنزل فيه القرآن في مكة والمدينة...[33].

27- ملاحظة حركة الصحابة في جو مكة والمدينة بالقرآن، وتفاعلهم معه .. [34]، أو التأمل فيما سماه الأستاذ سيد قطب: بـ: ظاهرة القرآن المكي، وتقرير العقيدة وعدم تجاوزها إلى الأمور الثانوية [35]،

---

[27] أنظر: **البرهان في علوم القرآن** للإمام الزركشي؛ ج 1، ص 449- 452، وانظر أيضاً: **الاتقان في علوم القرآن** للإمام السيوطي؛ ج 1، ص 445؛ و **إحياء علوم الدين**، لأبي حامد الغزالي، الباب الثالث، كتاب: **آداب تلاوة القرآن**، ج1، 280 - 320

[28] انظر: **الإتقان في علوم القرآن**، بتصرف شديد، ج1، ص: 445؛ **والبرهان في علوم القرآن** ج2، ص 175-200-201، **والموافقات في الشريعة الإسلامية** للإمام الشاطبي، ج3، ص 347 - 348

[29] خالد عبد الرحمن العك؛ **أصول التفسير وقواعده**،، ص 81 – 83 - 188، وانظر أيضاً: الزرقاني، عبد العظيم؛ **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ج1، ص 250

[30] أنظر : قطب، سيد؛ **التصوير الفني في القرآن**، ص 30-50، و راجع أيضاً: **في ظلال القرآن في الميزان**، ص : 305-400

[31] أنظر : زرزور، **عدنان؛ مدخل إلى التفسير و علوم القرآن**، ص :267

[32] أنظر : قطب، سيد؛ **مقومات التصور الإسلامي**، فصل: (**ألوهية وعبودية**)، ص:41 ، وفصل :(**حقيقة الألوهية**)، ص:81 .

[33] الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **مفاتيح للتعامل مع القرآن**، ص :59 .

[34] المرجع السابق، ص :59 .

"..إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، وأن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان، وأن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم وانتصار الإيمان على الفتنة.." [36].

28- إدراك شمولية الرسالة الإسلامية في كافة الجوانب البشرية.

29- إدراك حاجة البشرية وجوعتها إلى الإيمان بالله تعالى، حيث عبر الأستاذ سيد قطب قائلاً ".. إنها جوعة من نوع آخر، جوعة إلى الإيمان بقوة أكبر من البشر، وعالم أكبر من المحسوس ومجال من الحياة الدنيا، وجوعة إلى الوئام بين ضمير الإنسان وواقعه، بين البشرية التي تحكم ضميره والشريعة التي تحكم حياته، بين منهج حركته الذاتية ومنهج الحركة الكونية من حوله. جوعة إلى " اله " واحد يتلقى منه شريعة قلبه وشريعة مجتمعه على السواء ... " [37].

30- إدراك الحكمة لهذه الجوعة والحاجة البشرية هو أن: "... المنهج الرباني الصادر عن علم (بدل الجهل)، و كمال (بدل النقص)، وقدرة (بدل الضعف)، وحكمة (بدل الهوى) ، القائم على أساس: إخراج البشر من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده دون سواه.." [38].

31- النظرة التكاملية في آيات القرآن الكريم.

32- الوقوف طويلاً أمام الآيات التي قرنت العمل مع الإيمان، التي هي الأساس في حياة الإنسان [39].

33- عدم فصل الدين عن الدنيا، لأنه كما قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: " ليس من طبيعة المنهج الإلهي أن ينحصر في المشاعر الوجدانية والأخلاقيات التهذيبية والشعائر التعبدية أو في ركن ضيق من أركان الحياة البشرية ركن ما يسمونه: الأحوال الشخصية[40].

34- إعطاء الأولوية لدين الله في كل شئ، وأن دين الله لا يمكن أن يكون محكوماً أو مقوداً، وإنما يجب عليه أن يكون دائماً حاكماً أو قائداً أو مهيمناً...كلا إن "دين الله" لا يرضى إلا أن يكون سيداً مهيمناً، قوياً متصرفاً، عزيزاً كريماً، حاكماً لا محكوماً، قائداً لا مقوداً .." [41].

---

[35] قطب سيد، **معالم في الطريق**: ص : 21-22 .

[36] قطب، سيد، **معالم في الطريق**، ص :170-171 .

[37] المصدر السابق :68-69 ، وانظر فصل : (**ألوهية و عبودية**)، في **مقومات التصور الإسلامي**، ص :101، وانظر: قطب، سيد، **نحو مجتمع إسلامي**، ص29 .

[38] المصدر السابق:ص- 8، ويراجع فصل :(**الربانية**)، في كتاب :**خصائص التصور الإسلامي و مقوماته** للمؤلف ،ص 43 ، وانظر المقدمة في :**نحو مجتمع إسلامي**، ص :5-13، و يراجع بتوسع فصل : (**تيه وركام**)، في :**خصائص التصور الإسلامي**، ص :22 .

[39] قطب، سيد، **خصائص التصور الإسلامي**، ص : 182-183 .

[40] قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، ج 7، ص :89-90 ، **و معالم في الطريق** :ص :38-39

[41] قطب، سيد، **المستقبل لهذا الدين**، الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، 1988، مطبعة الفيصل، ص: 93، و يراجع بتوسع فصل (**الألوهية والعبودية**) في: **مقومات التصور الإسلامي**، ص :84-107، 1009، 132-134 .

35- الثبات والصبر وعدم تطرق اليأس والشك إلى قلوبنا بسبب ما نراه من حولنا من الضربات والأزمات للإسلام والمسلمين[42]. وهذا اليقين يستمد من طول الصحبة للقرآن الكريم تدبراً وتأملاً في آياته، كما أشار إلى ذلك الأستاذ سيد قطب: "..وهذا يقين نستمده من طول الصحبة لهذا القرآن وطول الصحبة كذلك للمحاولات البشرية في البيان. وطول المزاولة الشخصية للكتابة فترة من العمر طويلة .." [43].

36- فهم منهج الصحابة في قراءتهم وتدبرهم لكتاب الله، وهو أنهم كانوا يقرؤون القرآن بقصد التلقي والتنفيذ، وليس بقصد المتاع والقراءة المجردة، يقول رحمه الله:" إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول. ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرّج الأجيال التي تليه" [44].

37- عدم التأثر بالقوانين الوضعية البشرية الشيوعية والديمقراطية والماركسية والاشتراكية والرأسمالية والعلمانية والإلحادية والعولمة والحداثة.

38- إدراك التأثيرات الكنسية – بشقيها الشرقية والغربية – على نظام العالم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وتشويه صورة الإسلام وتورط رهبانها وقسسها في الفضائح الأخلاقية والشذوذ الجنسي.

39- إدراك لخطط وأساليب الصهاينة من اليهود المتطرفين لطمس الهوية الدينية والمعالم الإسلامية في فلسطين المحتلة وتهويد القدس الشريف.

هذه هي القواعد التي وقفت عليها أثناء إعدادنا لهذه الدراسة، حاولنا قدر الإمكان تجنب التكرار. وما من شك أن المسألة أكبر بكثير من حصرها في هذه الصفحات المعدودة، ويمكن للباحثين الآخرين الإتيان بالمزيد والجديد من المراجع والمصادر الأخرى والله أعلم.

المطلب الثاني: آداب روحية و مبادئ أخلاقية من منظور الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

ولقد رأيت كلاماً جميلاً لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله أرى من الفائدة اقتباس فقرات منه. و ربما يتوهم القارئ الكريم بعض الآداب على أنها مكررة في الوهلة الأولى، ولكنها ليس بمكررة عند التأمل والنظر، وللإمام الغزالي له طريقته الخاصة في عرض وبيان وربط حلقات هذه المنظومة مع بعضها

[42] قطب، سيد، **المستقبل لهذا الدين**، ص :116-117، وانظر: قطب، سيد؛ **خصائص التصور الإسلامي**، فصل (**الثبات**) ،ص :87

[43] قطب، سيد، **مقومات التصور الإسلامي** (القسم الثاني)، ص :24-25، بيروت، دار الشروق، ط 4 1993، وانظر: قطب، سيد؛ **خصائص التصور الإسلامي** للمؤلف، بيروت، دار الشروق، ط-8 1983، ص:10

[44] قطب، سيد، **معالم في الطريق**:ص-19

البعض بشكل فريد. وأود القول في هذه المناسبة: إن هذا الذي ذكره الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في أعمال الباطن للقارئ أثناء التلاوة يصلح بل ينبغي أن تكون قاعدة فكرية وأخلاقية ونفسية للمتدبر في كتاب الله عز وجل أيضاً. قال رحمه الله:

" الباب الثالث، **في أعمال الباطن في التلاوة**، وهي عشرة:1- **فهم أصل الكلام**. 2- **ثم التعظيم**. 3- **ثم حضور القلب**. 4- **ثم التدبر**. 5- **ثم التفهم**. 6- **ثم التخلي عن موانع الفهم**. 7-**ثم التخصيص**. 8- **ثم التأثر**. 9- **ثم الترقي**. 10- **ثم التبري**.

فالأول: فهم عظمة الكلام وعلوه؛ وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه.

الثاني: التعظيم للمتكلم؛ ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف غشى عليه ويقول: هو كلام ربي هو كلام ربي...، فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعدله...،

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس؛ قيل في تفسير ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، [مريم:12]، أي بجد واجتهاد وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره...،

الرابع: التدبر؛ وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره. والمقصود من القراءة التدبر. قال علي رضي الله عنه: [لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها]. وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام...، وعن أبي ذر قال: [قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾،[المائدة: 118]...،

الخامس: التفهم؛ وهو أن يستوضح من كل أية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل. وذكر أفعاله. وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام. وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار. ...، فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها

فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأولين والآخرين فليثوِّر القرآن...، ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عز وجل ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾،[الواقعة:63]، و﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾، [الواقعة:58]،﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾،[الواقعة:68]، و﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾، [الواقعة: 71]، فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنى، بل يتأمل في المنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة...، وأما أحوال المكذبين؛ كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغترّ بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية. وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له...، ومن لم يكن له فهم ما في القرآن ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾، [محمد:16]...، وقد قيل: لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد، ويعرف منه النقصان من المزيد، ويستغني بالمولى عن العبيد...،

السادس: التخلي عن موانع الفهم؛ فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن. قال صلى الله عليه وسلم [لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت]، ومعاني القرآن من جملة الملكوت، وكل ما غاب عن الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت، وحجب الفهم أربعة: أولها: أن يكون الهمُّ منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وُكِّلَ بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه. فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فأنى تنكشف له المعاني...،؟ ثانيها؛ أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة. فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه...، ثالثها: أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون. وكلما كانت الشهوات أشد تراكماً كانت معاني الكلام أشد احتجاباً، وكلما خفّ عن

القلب أثقال الدنيا قرب تجلى المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور، التي تتراءى في المرآة. والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرموا بركة الوحي]. قال الفضيل: يعني حرموا فهم القرآن. وقد شرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتذكير، فقال تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾، [ق:8]، وقال عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾، [غافر:13]، وقال تعالى ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾، [الرعد:19]. فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب. رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ذلك لا يناقض قول علي رضي الله عنه: [إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن]...، – انتهى كلام الإمام أبي حامد الغزالي عن حجب الفهم ثم يواصل كلامه قائلاً –

السابع: التخصيص؛ وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن. فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهي والمأمور. وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك. ولذلك قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، [هود:120]...، وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد. فهذا القارىء الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس، فليقدر أنه المقصود. قال الله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾، [الأنعام: 19]. قال محمد بن كعب القرظي: [من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله...]. ولذلك قال بعض العلماء: [هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده نتدبرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات]. وكان مالك بن دينار يقول: [ما زَرَعَ القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن ؟ إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض]...،

الثامن: التأثر؛ وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال و وَجْدٌ يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره. ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه...، ولذلك قال الحسن: [والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه، وكثر بكاؤه وقل ضحكه، وكثر نَصَبُهُ وشغله وقلت راحته وبطالته...، فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة... ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود [اقرأ عليّ قال: فافتتحت سورة النساء

فلما بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾، [النساء: 41]، رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي: حسبك الآن. وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية. ولقد كان في الخائفين من خرّ مغشياً عليه عند آيات الوعيد. ومنهم من مات في سماع الآيات...، ولذلك قيل: إن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن؛ فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى: مالَكَ ولِكلامي وأنت معرضٌ عني. دع عنك كلامي إن لم تتب إليّ...، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة! اختلف في اثنين منهم. وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين. وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم...، وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار. فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ.

التاسع: الترقي؛ وأعني به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه. فدرجات القراءة ثلاث، أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال. الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم. الثالثة: أن يرى في الكلاء المتكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكون مقصوراً لِهَمِّ على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره. وهذه درجة المقربين وما قبله درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين...، ولذلك قال بعض الحكماء: [كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيماً لا أصبر عنه]...، وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام...،

العاشر: التبري؛ وأعني به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية. فإذا تلا بآيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشوف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم. وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك، وقدر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً. ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: [اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري، فقيل له: هذا الظلم فما بال الكفر؟ فتلا قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾، [إبراهيم:34]...،

وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبري عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف فحيث يتلو آيات الرجاء ويغلب على حاله الاستبشار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عياناً. وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها. وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف والشديد العسوف والمرجو والمخوف وذلك بحسب أوصافه، إذ منها الرحمة واللطف والانتقام والبطش..." [45].

وبما أن مساحة هذا البحث لا تسمح لي بالتوسع أكثر، اكتفي بهذا القدر عسى ولعلي أكون قد وفقت لبيان بعض الآداب المطلوبة لتدبر الأمثل والمثمر للآيات القرآنية من خلال عرض وبيان ما كتبه بعض القدامى والمعاصرون من علمائنا الأجلاء رحم الله الميِّتين منهم وحفظ الأحياء، وجعلنا من أمثالهم إنه تعالى سميع قريب مجيب وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

[45] الغزالي، أبو حامد؛ **إحياء علوم الدين**، الباب الثالث، في أعمال الباطن في التلاوة، بتصرف ج1، ص 280

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته وتوفيقه تتحقق الأهداف وتنجز الأعمال، والصلاة والسلام على أشرف من صلى وصام وتدبر القرآن وجاهد بالنفس والمال، سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى الصحب الكرام والآل، وعلى من اتبع سنته وسار على هديه بالأقوال والأعمال.

لقد توصلنا بحمد الله وتوفيقه إلى نهاية هذا الدراسة المتعلقة باستحضار الآداب الروحية والمثل الأخلاقية لمن أراد تدبر القرآن الكريم حق التدبر. وقد أثبتت الدراسة أن هناك هجراً وإعراضاً عن تدبر القرآن الكريم من بعض الناس وأن كثيراً من المسلمين وغير المسلمين لديهم تصور خاطئ عن الإسلام، وقد بينا أن السبيل إلى تصحيح هذا التصور هو العودة إلى القرآن الكرم من جديد تدبراً وتأملاً في معاني الآيات، مؤكدين على أن تدبر القرآن الكريم ليس من حق العلماء فحسب وإنما هو حق جميع الناس بصرف النظر عن الخلفية الدينية أو العرقية أو الثقافية للمتدبر بشرط مراعاة السياق العام للآيات القرآنية والسباق واللحاق. وقد أثبتت الدراسة أن التدبر الأمثل يكون بالعودة إلى معرفة حال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والسلف الصالح مع القرآن الكريم وكلام أهلم العلم المحققين من المفسرين القدامى والمعاصرين. لقد اثبتت الدراسة أيضاً أن التوصل إلى التدبر الأمثل للقرآن الكريم يكون بالتزام واستحضار جملة من الآداب والضوابط الروحية والنفسية والأخلاقية لكون هذه الآداب والضوابط ضرورية وأساسية لمن أراد أن تنكشف له معاني الآيات القرآنية وتنجلي له الحقائق الربانية والمعاني الخفية واللطائف الإلهية والأسرار العلمية التي اشتمل عليها هذا الكتاب العظيم. وبينت الدراسة أن على المتدبر التخلي عن بعض الموانع والحجب التي تحول بينه وبين الفهم الصحيح والتدبر السليم لآيات القرآن الكريم؛ كأن يكون هم القارئ منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، أو أن يكون مقلداً متعصباً لمذهب معين أو أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بالكبر أو متبعاً لهواه...الخ، فإن هذه الموانع سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة يمنع تجلية الحق، لأن القلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تظهر في المرآة، فهذه الآداب تعتبر رياضة للقلب والعقل بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة. ثم ختمت هذه الدراسة بذكر بعض الآداب والضوابط التي ذكرها حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله رحمة واسعة، والله أعلم.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يدخر أجره لي ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم إنه تعالى أكرم مسؤول وخير مأمول وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد و على آله وأصحابه.

وكتبه الفقير إلى عفو مولاه

خادم القرآن والسنة

الدكتور خيرالدين خوجة (الكوسوفي)

محاضر في التفسر والدراسات القرآنية –كلية أصول الدين – جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية

سلطنة بروناي دار السلام

م 2011/1/5

E-mail:drhafezi68@gmail.com

www.drhafezi.weebly.com

المصادر والمراجع

1. ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية أبو عبد الله، **التفسير القيم**، جمعه : محمد أويس الندوي، حققه محمد حامد، قرص المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني 2006، المدينة المنورة.
2. ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية أبو عبد الله؛ **الفوائد**، ط1، ت.د، دار وهبة، القاهرة.
3. ابن تيمية، أحمد الحراني؛ **مقدمة في أصول التفسير**، ط2، دار الحديث، 1982، بيروت.
4. ابن عاشور، محمد الطاهر؛ **التحرير والتنوير**، ط2، دار الفكر، بيروت، 1999
5. ابن كثير، أبي الفداء اسماعيل القرشى الدمشقي؛ **تفسير القرآن العظيم**، دار القلم، دمشق، 1983.
6. ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظورالإفريقي المصري؛**لسان العرب**،دار صادر،بيروت، ط1.
7. الأصفهاني؛ الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، **مفردات ألفاظ القرآن**، نسخة محققة، دار القلم، دمشق. 1980.
8. الألباني، محمد ناصر الدين؛ **السلسلة الصحيحة**، مكتبة المعارف، الرياض، ط.د.، ت، د.
9. بكار، عبد الكريم ؛ **عصرنا والعيش في زمانه الصعب**، دار القلم، دمشق، ط2، 2004.
10. البوطي، محمد سعيد رمضان؛ **من روائع القرآن – تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل**، ط.د، 1982، مكتبة الفارابي، دمشق.
11. الخالدي، صلاح عبد الفتاح؛ **تعريف الدارسين بناهج المفسرين**، دار القلم، دمشق، ط3، 2008.
12. الخالدي، صلاح عبد الفتاح؛ **مفاتيح للتعامل مع القرآن**، ط2، 1994، دمشق، دار القلم.
13. الخالدي، عبد الفتاح صلاح؛ **في ظلال القرآن في الميزان – دراسة وتقويم**، ط 1، 1986، دار المنارة.
14. الرازي، للإمام محمد فخر الدين بن لعلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري؛ **مفاتيح الغيب، المشتهر بالتفسير الكبير**، ط3، دار الفكر، بيروت، 2000
15. الرومي، فهد بن عبد الرحمن ؛ **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1986
16. الرومي، فهد بن عبد الرحمن؛ **بحوث في أصول التفسير ومناهجه**، ط. د، مكتبة التوبة، الرياض، 1413.
17. الرومي، فهد بن عبد الرحمن؛ **دراسات في علوم القرآن الكريم**، جامعة الملك سعود، الرياض،ط 16، 2009.
18. زرزور، محمد عدنان؛ **مدخل إلى التفسير و علومه** ، ط1، دار القلم، 1995، دمشق.
19. الزرقاني، محمد عبد العظيم؛ **مناهل العرفان في علوم القرآن**، دار البشير، ط2، 1990، بيروت.
20. الزركشي، أبي عبد الله؛ **البرهان في علوم القرآن**، ط4، مكتبة وهبة، جدة، 2004
21. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، **الكشاف**، ط4، دار بن حزم، الرياض، 200
22. **سنن الترمذي (الجامع الكبير)** تحقيق،بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1996،
23. السنيدي، سلمان بن عمر؛ **تدبر القرآن**، كتاب المنتدى – مجلة البيان، ط1، 2001
24. السيوطي، للإمام أبي عبد الرحمن؛ **الإتقان في علوم القرآن**، ط3، دار البشائر، بيروت، 2000.

25.الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر، بيروت، 1995، تح مكتبة البحوث والدراسات.
26.**صحيح مسلم بشرح النووي**، ط4، دار القلم، دمشق، 2000
27.**صحيح البخاري بشرح الإمام بن حجر العسقلاني**، دار الملايين، ط2، بيروت، 1998
28.الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير؛ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ، ط2، دار الملايين، بيروت، 2006.
29.الطيار, مساعد بن سليمان، **مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر**، ملتقى أهل الحديث على الإنترنت، 2010
30.العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر **هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة ومعه تخريج الألباني للمشكاة**، تحقيق :علي بن حسن بن عبدالحميد الحلبي، دار ابن القيم ، الدمام ، ط 1 ، 1422 هـ
31.العك، خالد عبد الرحمن؛ **أصول التفسير وقواعده**، ط2، 1986، دار النفائس، بيروت، لبنان.
32.الغزالي، أبو حامد؛ **احياء علوم الدين**، ط.د، ت.د. دار الملايين، بيروت، لبنان.
33.الغزالي، محمد؛ **كيف نتعامل مع القرآن**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1991، هيرند- فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية
34.القرضاوي، يوسف؛ **الخصائص العامة للإسلام**، مؤسسة الرسالة، ط 10، 1997، بيروت.
35.القرضاوي، يوسف؛ **كيف نتعا مل مع القرآن العظيم – فهماً وتفسيراً**، ط1، 1999، دار الشروق، القاهرة.
36.القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
37. قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين**، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، 1988، مطبعة الفيصل.
38.قطب، سيد؛ **خصائص التصور الإسلامي**، ط8، 1983، دار الشروق، بيروت
39.قطب، سيد؛ **التصوير الفني للقرآن**، دار الشروق، (ط.د.)، (ت.د).
40.قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين**، الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، 1988، مطبعة الفيصل.
41.قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن**، بقلم ، ط 11، 1985، دار الشروق، القاهرة.
42.قطب، سيد؛ **معالم في الطريق**، 1980، دار الشروق، بيروت .
43.قطب، سيد؛ **مقومات التصور الإسلامي**، ط 8، دار الشروق، 1983، بيروت.
44.قطب، سيد؛ **نحو مجتمع إسلامي**، ، ط8، 1988، دار الشروق .
45.قطب، سيد؛ **هذا الدين**، ، ط4، 1999، دار الشروق.
46.اللاحم، خالد بن عبد الكريم؛ **مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة**، ط1، 2004، الرياض، المملكة العربية
47.المرزوني، عبد الله بن المبارك، **كتاب الزهد**، تح حبي الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية.
48. الميداني، الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة؛ **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**، ، ط2، 1989، دار القلم، دمشق.
49.النووي، يحيى بن شرف الدين أبو زكريا محي الدين، **التبيان في آداب حملة القرآن**، تح محمد النجار، ط4، دار ابن حزم، 1996.